« إنّى رأيتُ أنه لا يكتب إنسان كتابا فى يومه إلّا قال »
« فى غَدِه : لو غُيِّر هـذا لكان أحسن ، ولو زيد كذا لكان »
« يُسْتحسن ، ولو قُدِّم هـذا لكان أفضل ، ولو تُرك هذا لكان »
« أَجْمـل . وهـذا من أعظم العِبَر ، وهو دليـل على استيلاء »
« النقص على جملة البشر » .

العمَاد الأصفهانىّ

الى حضرة صاحب الدولة عبد الخالق ثروت باشا

مـــولاى

لله على نعـمةُ التوفيـق الى الاتصال بك، والانقطاع لخدمتـك، والاستظلال بظلّك، فأنا أحد هؤلاء الكثيرين الذين تعهّدهم فضلُك، وثقّفهم نصحُك، وهـذّبهم أدبُك . أولئك الذين أنت لهم أبٌ برٌّ، ومثقِف حكيم، وأستاذ رشيد .

وكنتُ قد أخذتُ نفسى بأن أَقِفَ على خدمتك ما أملك من وقتٍ وجَهْـد، ولكن الإنسان طُلِعَةٌ بطَبْعه، فاذا اتصل بك فلا حدّ لرغبته فى البحث، وحرصِـه على الجِدّ، وطُمُوحه الى الكمال . وكذلك أراد اللهُ أن أقتطعَ من هـذا الوقت الذى وهبتُه لك خالصًا ما أمكنَنِي من وَضْع هذا الكتاب .

فهـل تأذن لى يا مولاى أن أرفع اليك "عصر المأمون" على أنه أثر يُهْدَى الى مُنْشئه، وحقٌّ يُرَدُّ الى أهله، واعترافٌ بالجميل من رجلٍ مَهْمَا يَفْعلْ ومهما يَقُلْ فلن يوفّيَكَ بعضَ ما يَدِينُ به ضميرُه لك من حبٍّ وإجلال .

مـدّ اللهُ فى حياة مولاى، وجعل مستقبلَها كماضيها حافلًا بالجِدّ والتوفيق فى خدمة أمته وعصره ومليكه ٤

أحمد فريد رفاعى

أول يونيه سنة ١٩٢٧

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

١ — الحمد لله، والصلاة والسلام على رسل الله . وبعد فإنّى أتقدم بهذا الأثر الضئيل من "عصر المأمون" الى أمتى، والى الناطقين بالضاد من أبناء لغتى . وآمُلُ بفضل إرشاد العلماء والنقّاد أن يوفّقنى الله الى إكمال النقص ، وإصلاح الخطأ ، وتلافى التقصير فى الطّبَعات القادمة . معترفًا ، فى صدق وإخلاص ، بأن طَبْعتى هذه لا تَعْدو أن تكون "مُحَاولةً" لكتابة التاريخ العربى على النُّظُم العلمية الحديثة . وأنت تعلم أن تاريخنا العربى لا يزال ، بلا مبالغة ولا إغراق ، تُعْوِزُه شتّى المصادر كما يُعْوِزُه التنظيمُ والترتيب والتحقيق والاستقراء . وإنى أسأله تعالى أن يجعلنى ممّن يُذْعِنُ لكلمة الحق . فيرْعَى حُرْمتها ، ويهتدى بهَدْيها ، غيرَ مفتونٍ بمدح المادح ، ولا مُبْتئِسٍ بقدح القادح . كما أسأله أن يُرْشِدَنى الى المُضِىّ موفّقًا مسدَّدا فيما أخذتُ به نفسى من البحث عن عصور "معاوية" و"المنصور" و"الرشيد" و"عبد الرحمن الأندلسى" . وآمُلُ بمَعُونته تعالى ، وبإرشاد العلماء والأدباء ، ومَعُونة المستشرقين والباحثين ، وبما يَهَبُ لى الله من صبر وجلد ، ومُوَاظبةٍ ومُثَابرة ، ومُتَابعةٍ للدرس والاستقراء ، وبما أوفّق اليه من مصادر ونصوص ، ومراجعَ ومظانّ ، أن أكون — عند الانتهاء من كتابة ما ارتهنتُ به ، لو كان فى العمر بقية — قد وفّقتُ الى تنظيم دراسة تلك البحوث تنظيما جزئيا ، يتفق ووسائلى ومَقْدورى ، ويتمشّى — الى حدّ مّا — والطريقة التحليلية الحديثة فى كتابة التاريخ ، وأن يكون عملى حين ذاك مما يسمح لى أن أقول ، فى ثقة وإيمان ، إنى قد قمت

حقًا "بمحاولة" ذات أثر نافع تمكّن غيرى من اتخاذها أساسًا لكتابة تاريخ المدنيّات العربية الواسعة المَدَى ، البليغة الأثرِ فى الثقافات الإنسانية عامة ، كتابةً تاريخية صحيحة .

٢ — وقد وقع "عصر المأمون" فى مجلدات ثلاثة ، خصصت أولها بالتاريخ وما الى التاريخ ، وثانيها وثالثها بالأدب وما الى الأدب . واعتمدت فى تلخيصى للشعراء فيهما على أمهات المظانّ الأدبية لا سيما كتاب الأغانى ، وأعترف — فى صدقٍ و إخلاص — أنّ مهمتى فى المجلدين الأخيرين لم تخرج عن مهمة المتخيِّر لما فى تلك العصور الزاهية من غُررٍ ودُررٍ ، المنقِّب عما فيها من طُرَفٍ وملَحٍ ، الملخص لحياة أدبائها وشعرائها ، المحتفظ بعبارات المعاصرين وشيوخ المؤلفين عنها . وقسمت المجلد الأول الى كتب ثلاثة . عالجتُ فيها البحثَ عن عصور بنى أمية و بنى العباس والمأمون . وقد توخَّيت الإيجاز فى فَذْلكتى التاريخية عن عَصْرَىْ الأمويين والعباسيين لأنهما بمَثابة تُكَأَةٍ وأساس لموضوعنا ، كما لاحظتُ الاستمساكَ بالخَيْدة التامة وعدم التطوح مع أولئك المؤرّخين والرُّوَاة الذين تأثَّروا بأهوائهم السياسية ومعتقداتهم المذهبية والذين نكَبَتْ بهم عن مَحَجّة الصواب مغالاتُهم فى الانتصار لفكرتهم الحِزْبيّة . وقسمتُ المجلدين الثانى والثالث الى ملحقات للكتب الثلاثة عن العصور الثلاثة ، نشرت فيها ما وَسِعَه المقامُ من المنثور والمنظوم والنصوص الطويلة والمقالات المستفيضة . وعُنِيت عنايةً خاصة الى جانب ذلك بذكر جملة صالحة من آثار كاتب خاص وشاعر خاص على أنهما نموذجان لتمثيل عصرهما . واتخذتُ من عبدالحميد الكاتب وعمر بن أبى ربيعة نموذجًا أُمَويًا ، ومن أبى الربيع محمد بن اللَّيْث و بَشَّار بن بُرْد مثالا عباسيًا ، ومن عمرو ابن مَسْعَدة وأبى نُوَاس نموذجًا لتصوير الحياة الكتابية والشعرية فى عصر الأمين والمأمون ، الى غير ذلك من النماذج والآثار مما يستدعيه المقام ، فجاء المجلدان الثانى والثالث بذلك مكملين للمجلد الأوّل .

وأعتقد اعتقادًا راسخًا أنّه لن يعترض علىَّ معترض لعنايتى بالعصر العباسى من وجهتيه التاريخية والأدبية ، فلم يَعْدُ "عصر المأمون" عن كونه شطرا يُحْفَلُ به من العصر العباسى ، كما أعتقد أنه مما لا مندوحة لنا عنه لتفهم العصر العباسى أن نصوّر لك العصر الذى قبله

بما يسعه المقام . وهذا ما عالجناه لك فى كتابنا بصورةٍ متواضعةٍ نأمل أن تكون فيها الغُنية والكفاية لما نروم تصويره .

ولقد عدلت عما كنتُ ذهبتُ اليه من بيان المصادر والمراجع فى نهاية كل صفحة، رغبة فى ألّا أشغلَ نظر القارئ بما لا يُجْدى عليه، وحرصا على توحيد مجهوده فى استيعاب الموضوع وتفهُّم شتَّى مَناحيه ، مُلْحقًا فى الوقت نفسه نهايةَ المجلد الثالث بيانَ مصادر الكتاب لمن أراد توسّعا فتُراجع ثَمَّةَ .

٣ — وأحمد الله أن أبرز كتابى هذا فى عصر النهضة الاستقلالية المصرية التى ازدانت برعاية مولانا المليك " فؤاد الأوّل " حفظه الله . كما ازدانت بناصعة خدم أقطابنا وزعمائنا ، ذوى الصُّحُف البَيْضاء، والآثار الخالدات الباقيات، وعلى رأسهم أصحاب الدولة الأجلّاء، فقيدُنا المرحوم المبرور "سعد زغلول باشا" والقُطْبان الخطيران "عدلى يكن باشا" و"عبد الخالق ثروت باشا". فهؤلاء الثلاثة، قد وهب الله لهم أَصَالةَ الرأى، ونَبَالةَ القَصْد، وثروةَ الذهن، وغِنَى العقل، وحباهم سدادا فى سياسة، وتواضعا مع رِياسة، وحكمةً فى كياسة، ونبوغًا مع ثَقافة، وحزمًا فى حَصافة . وأمتعهم بثُقُوب النظر، ورَجَاحة الفكر، وأفاض على أشخاصهم لِينًا ودَمَاثة، وسماحة ووَدَاعة، حتى أجمع القومُ على حبهم إجماعَهم على الاعتراف بوافر فضلهم ، والإشادة بعَطِر ذكرهم، وتسابقوا الى الاستفادة من سديد مواقفهم ، وحكيم صنعهم ، ونَزِيه أعمالهم ، استفادتَهم من أَفَاوِيقِ عِرْفانهم ، وفَيْض بيانهم ، ومُقْنِع برهانهم . وهؤلاء الثلاثة قد نجحوا فى تكوين الأمة من الوجهة السياسية، نجاحَهم فى تكوينها من الوجهة القومية . فاللهمّ رحمةً واسعة لزعيمنا الراحل الكريم، وعوِّضْنا اللهمّ من خسارتنا الفادحة فى فقده ، أحوَج ما كنا الى عظيم جُهُوده، وهَب اللهم حياة طويلة لقُطْبَيْنا مَحَطِّ الآمال ومَعْقِد الرجاء .

وأحمده تعالى على أن دخلت البلاد عهدًا جديدًا من حياتها العلمية، بزَعَامة وزير معارفنا الهمام ، مُرْهَف العَزَمات ، مسدَّد الوَثَبات، صاحب المعالى "على الشمسى باشا" ومدير

جامعتنا المصرية العالم الجليل الأستاذ "أحمد لطفى السيد بك" وغيرهما من رِجَالات العلم والأدب فى هـذا الجيل .

٤ — وإنى أنتهز هذه الفرصة لأشيد بما للمرحوم الأستاذ محمد الخضرى بك مِنْ فضلٍ عظيم . ومعترفا بمـا لصديقى الدكتور طه حسين الأستاذ بالجامعة المصرية من مَعُونة قيّمة فى غير موضع من الكتاب ، كما أنتهزها لأشكر لسادتى العلمـاء والأدباء ، ورجال الصحافة والمجلّات حسنَ استقبالهم لكتابى . كما أحمـد لحضرات النقّاد الأجلاء جميلَ تشـجيعهم وحكيمَ أخذهم الأمور بهَوَادة ورِفْق . معترفًا بصادق رغبتهم فى الأخذ بناصر العلم والعلماء قادرا أعظم قَـدر روحَهم العالية فيما دبّجوه فأجادوه ، وكتبوه فارتفعوا بعـلم النقد عندنا عمـا وُصِم به أخيرا من التَّطَاحُن والرِّمَاء ، والجِلَاد والشَّحناء ، والعمل على الهـدم لا على البناء ، كما أشكر لسادتى الأستاذين الجليلين محمد عبدالوهاب النجار وعبدالخالق عمر والكاتبين الأديبين محمد الهياوى ومحمـد صادق عنـبر ، حُسْن صنيعهم فى تهذيب "عصر المأمون" معترفا بعظيم جهد ثانيهما اللغوى أحسن الله جزاءهم .

وإنى أخص بالشكر رجال دار الكتب المصرية وعلى رأسهم حضرات الأساتذة محمد أسعد برادة بك مدير الدار ذى الخلق الوديع والهمة الشَّمَّاء . وأحمد زكى العدوى افندى رئيس القسم الأدبى بالدار وصاحب الهوامش الحسان . وعبد الرحيم محمود افنـدى ومحمد عبد الجواد الأصمعى افنـدى المصححين به وصاحبى الأثر الطيب الجليل . ورجال هذا القسم كافة فلهم الفضل الكثير ، بهمة رئيسهم الفاضل ، فى ضبط الكتاب وتصحيح مسوّداته . كما أشكر حضرة الفاضل محمد نديم افندى ملاحظ الطباعة بالدار المشهور بالدقة والإتقان . ويلوح لى أن الله تعالى أحسن جزاء المأمون على حَدَبِه وكبير عنايته بدُورِ الحكمة (دور الكتب) العديدة فى عصره ، بأن وفّق دار الحكمة فى مصر ، فى هذا العصر ، الى رعاية عصره ، بهمة وإخلاص ، وتدقيق وتحقيق ما

أحمد فريد رفاعى

١٤ سبتمبر سنة ١٩٢٧